عروبة الشيعة العرب

الوصفة المطلوبة للعلاقة المعطوبة

ورقة من الكاتب فؤاد مطر

نحن عملياً نعيش مخاض ولادة أمبراطوريتيْن بمواصفات متعددة،كلاهما تستندان إلى ثروة النفط ربما حتى عشر سنين آتية يكون خلالها بدأ إستخراج الأصفر الرنان،أي الذهب وسائر المعادن الثمينة، يلبي الإحتياجات التي كان يلبيها الأسود الملوِّث والغاز الأكثر تلويثاً وهو المعوَّل عليه في بناء القوة العسكرية.

ما أعنيه بالأمبراطوريتيْن هما:الأمبراطورية الوهابية في الكنف السعودي.الأمبراطورية الشيعية في ظل الولي الفقيه الإيراني.في الوهابية مسحة عروبية.وفي الشيعية الخمينية إستحضار لأمجاد فارسية ما لبثت أن إنتكست في ظل إرادة قتالية عربية.ومنذ ذلك الإنتكاس بدأ الحقد الإيراني على العرب.

قوة الأمبراطورية الوهابية بإعتبار ما سيُستكمل في حال كان هنالك رؤية حولها إلتفاف جماهيري وقوة وفق نظرية أن الإتساع الجغرافي والكثافة السكانية ليست شرطاً أساسياً لبناء الشأن القوي عسكرياً(هذه اسرائيل على سبيل المثال)، هي في تعريب الشيعة العرب وبالذات اولئك الذين بدأوا مرحلة إبتعاد متدرج في الولاء عن وطنهم الكبير(الأمة العربية) والأوطان الصغيرة، وإقتراب سريع المشاعر وأحياناً الخطوات من «النعيم» الإيراني.

التعريب كما أراه يكون بداية في إعادة التصنيف المقلق من جانب المرجعيات الدينية للشيعية فلا يبقى الشيعي تحت المجهر الوهابي.هنا قرارات ولاة الأمر هي المدخل إلى ذلك.وعندما يتسع هامش سعودة الشيعي تتراجع تطلعاته خارج حدود الوطن.

بذلك يبدأ إنتزاع الورقة الأهم من المشروع الإيراني. والسعودة إستناداً إلى ما يسمعه المرء مثل حالنا وغيرنا من تأوهات وطنية هي في إضافة، إذا جاز التوصيف،شتول ورود تخلو منها حديقة الحُكْم في المملكة وعلى مستوى الحكومة والإدارات ومجلس الشورى والتمثيل الدبلوماسي،فضلاً عن تعديل الكثير من المفردات.

عندما يتم إنتزاع هذه الورقة يصبح الخطاب الإيراني خاوياً.وعندما يُستكمل السعي من أجل تعريب شيعة لبنان،أو فلنقل تحديداً شيعة «حزب الله»، فإن المشروع الإيراني ينتهي من دون أعماق خارجية له.مع الأخذ في الإعتبار حقيقة أساسية وهي أن العمق الشيعي اللبناني (شيعة «حزب الله») هو العمق الأكثر فعالية في المشروع الإيراني، ومن دون هذا العمق الذي يحقق لإيران ما لا قدرة لأعماق أُخرى على تحقيقه، يفقد النظام الإيراني القدرة على التدخل عسكرياً من خلال السلاح وسياسياً من خلال تعطيل سير العمل في مؤسسات الحُكْم اللبناني.

معاناة الشيعة في لبنان كانت حتى الظهور المفاجىء لرجل الدين الإيراني- العربي السيد موسى الصدر مطلع السبعينات،أنهم مقموعون من زعامات إقطاعهم السياسي وبذلك كانوا أقل اللبنايين نمواً وأقلهم تحصيلاً للحقوق.وما هو مستحصَل عليه من الدولة من حقوق كان ينحصر في ثلاث زعامات إقطاع في شيعة

الجنوب(أحمد الأسعد.عادل عسيران.يوسف الزين) وزعامتيْن في شيعة منطقة بعلبك الهرمل(صبري حماده .ابراهيم حيدر).

هذه الزعامات إستأثرت بما من حق أبناء الطائفة الحصول عليه.ومن هنا يجوز القول إن الحرمان الشيعي اللبناني سببه حارمون شيعة لبنانيون.هنا كان حرياَ بالوهابية السياسية بناء جسور من التنمية في الأوساط الشيعية المهمشة وليس الإكتفاء بجسور آيلة للتساقط مع الزعامات.وعلى خارطة التواجد الشيعي اللبناني جنوباَ وبقاعاً لا أثر لمستشفى أو مصنع أو مدرسة أُنشئت في إطار التنمية للشيعة العروبيين وهذا قبل أن تلفح الثورة الخمينية الوجوه ثم تبشيرها فتجنيدها الأفراد بعشرات الألوف.

وبسبب الحرمان وإنعدام التنمية إتجه شيعة الجنوب وشيعة بعلبك- الهرمل نحو أحزاب كانت بدأت تنشط في أوساط النخبة (حزب البعث.حركة القوميين العرب.الحزب القومي السوري.التيار الناصري.الحزب الشيوعي).

في المرحلة التي نزل فيها السيد موسى الصدر إلى الميدان اللبناني،أو أُنزل إليه، كان المقاتلون الفلسطينيون بدأوا الإنتشار في لبنان وعزز وجودهم إتفاق أُبرم في القاهرة بتمنيات ضاغطة من قبل الرئيس جمال عبدالناصر، بين رئيس الجمهورية شارل حلو (في شخص قائد الجيش اميل البستاني) ومنظمة التحرير الفلسطينية .وبطبيعة الحال إتخذ هؤلاء مواقعهم الإستراتيجية في بلدات وقرى الجنوب وعُرفت بـ «فتحْ لاند»، أما في قلب العاصمة فكان حضورهم السياسي والقيادي العسكري مقبولاً على مضض .

تزامَن وصول موسى الصدر،أو إيصاله، مع إحصاء تقديري جـاءت أرقامـه على النحو الآتي:الشيعة 970 ألف نسمة.السُنة 690 ألف نسمة.الدروز 342 ألف نسمة.الموارنة 496 ألف نسمة.الأرثوذكس 23 ألف نسمة.الكاثوليك 213 ألـف نسمة.بعد جمْع الأرقام يكون عدد المسلمين مليونيْن وبضع مئات،الأعلى رقماً هـم الشيعة.وإذا نحن أخذْنا في الإعتبـار التحفيـز المسـتحدَث لـذكور الشـيعة،كما الفلسطينيين، على المزيد من النسل وهي إستراتيجية بدأت مـع حيويـة الشـهية الخامنئية إلى الحلم الأمبراطوري،فإن عددهم وصل إلى أكثر من مليون ونصـف المليون في العام 2016وهذا يعني إصرارهم على إعادة النظر ولو بتأثير إمتلاك السلاح لتعديل صيغة المحاصصة السياسية الطوائفية.

حتى الآن(أي قبل أربعة عقود) هنالك حالة من الضيق في نفوس الشيعة لكن لا وجود للتعصب المذهبي.وكانوا حاضرين من خلال الجمهور المثقـف والعمـالي والطلابي في الأحزاب ذات النهج العروبي مضافاً إلى ذلك إحتضان للعمل الفدائي الفلسطيني.

مع إطلالة موسى الصدر إماماً على الميدان بدأت عروبة شيعة لبنان تتراجـع بالتدرج.طرح موسى الصدر ما سماه «حركة المحرومين».بات حـوالى 75 فـي المئة من الشيعة يغردون في الفضاء الصدْري.ولكي لا يتحسس المسيحيون منـه فإنه عقد صداقة مع كبار القوم (فعل ذلك لاحقاً السيد حسن نصرالله مـع القطـب الماروني ميشال عون) ثم وقف ذات يوم خطيباً مِن على منبر كنيسة وأمام لوحـة مجسَّمة تمثل السيد المسيح مصلوباً.كأنما أراد الإيحاء بأن أبناء طائفته كانوا على

مدى عقود قبل الإستقلال عام 1943 ثم في العهود الرئاسية الإستقلالية مقهورين مقموعين حالهم من حال عيسى بن مريم الذي باعه يهوذا بثلاثين من الفضة.

هذا لا يكفي.أبرم السيد موسى الصدر إتفاق تعاون إستراتيجي مع ياسر عرفات الزعيم الفلسطيني القوي الشأن لبنانياً لم يرتْح له السُنة ضمناً والمسيحيون من خلال بعض سياسييهم(ريمون اده أحدهم) علناً.بمقتضى الإتفاق بدأ عهد الشيعي اللبناني المسلح:الجناح العسكري في حركة «فتح» يدرب العشرات ثم المئات من أبناء الطائفة الشيعية على السلاح.تزايد الولاء الشيعي اللبناني للسيد موسى الصدر خصوصاً بعدما أحدث نقلة نوعية تمثلت بما إرتأى تسميته «المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى».كانت الصيغة مدروسة حيث أن المجلس إستقطب الرموز من النخبة في الطائفة وهؤلاء كان الإقطاع السياسي الشيعي في إستمرار لا يعيرهم الإهتمام ولا يشجع وضْعهم في مواقع المسؤولية السياسية المتقدِّمة كي لا ينقلبوا بقوة التنوير على جاهلية الإقطاع،ومن هؤلاء الرموز على سبيل المثال لا الحصر نبيه بري الذي ورث لاحقاً مكانة شعبية ومسلحة بناها موسى الصدر.مثل هذا الأمر لم يرتح له الرئيس حافظ الأسد لأنه وحده يريد أن يكون المرجعية للشيعة اللبنانيين.فجأة حدثت واقعة إختفاء موسى الصدر ورفيقيْن معه.كانوا في زيارة إلى ليبيا وبعدما إختفوا وترويج مسألة مغادرتهم مطار طرابلس إلى روما،لكن لم يصلوا إلى العاصمة الإيطالية،كثُر الظن في أن نظام العقيد القذافي سَجَن الصدر أو أجاز تصفيته.وبقي إحتمال آخر مفاده أن جهة حليفة للقذافي (إيران وربما سوريا) تسلمت الصدر وتصرَّفت به تصفية أو رمياً في سجن لا نزلاء فيه غيره وبحيث يتم إظهاره في وقت محسوب.مجرد ظن بعضه ليس إثماً.

المهم أنه لمجرد طي الوجود الصدري بدأ «حزب الله»:في البداية الشيخ صبحي الطفيلي أميناً عاماً وهو من منطقة بعلبك ما زال حياً ومنشقاً عن الحزب ثم عباس الموسوي الذي إغتالته إسرائيل. وإستقرت القيادة على شخص السيد حسن نصرالله أحد أبناء منطقة الجنوب.معه بدأ تَدفُّق السلاح المتقدم والصاروخي بشكل خاص من إيران عن طريق سوريا.المئات الذين درَّبتهم «فتح» باتوا بالألوف.ثم بدأت القيادة الجديدة ترسل الأفراد من «حزب الله» إلى إيران وإلى سوريا في دورات تدريبية متقدمة.وفي لبنان أصبح هنالك حضور بالغ الأهمية للمستشارين العسكريين الإيرانيين.

في هذا الجو بدأ الجزْر العروبي يقابله المد المذهبي.بدأت أيضاً التقاليد المذهبية الشيعية تشق طريقها إلى النفوس كما بدأت مدارس في الضاحية الجنوبية من بيروت وكذلك في معظم مناطق الجنوب تقوم بتعليم الأجيال اللغة الفارسية مع إرفاق ذلك بشحن مذهبي.

وشيئاً فشيئاً بات الشادور الإيراني والعباءة السوداء من المظاهر المألوفة في وسط نساء الشيعة.

ما هو أهم من ذلك أن الشيعة بدأوا يرون أن إيران هي المتكأ الذي ترتاح الطائفة عليه.ولا يهم أن ليس بين الشيعي اللبناني والشيعي الإيراني صلة اللغة.وحتى الوزراء الذي يأتون من إيران في مهمات إلى لبنان يتحدثون مع الشيعي اللبناني كما حديث البريطاني أو الروسي أو الفرنسي أو الأميركي معه..أي عبْر المترجم.وحتى إذا كان المسؤول الإيراني ملماً بالعربية فإن لسانه لا ينطق بها.

إخراج القوات السورية من لبنان أربك إيران.بدأت في ضوء ذلك تخطط لأمر أكثر تأثيراً.دخلت على الرئيس بشَّار من باب الجرح النفسي المصاب به،أي الخروج الإضطراري المذل للقوات السورية من لبنان.أقنعتْه بأنه إذا كان الملك عبدالله بن عبدالعزيز إستعاده في القمة الإقتصادية العربية في الكويت(19 يناير 2009) بعد زلة لسان تجاوزها الملك من أجل لملمة الصف العربي،فإن إيران قادرة من خلال«حزب الله» وحليفه الماروني الأساسي ميشال عون وحلفاء سوريا الأسدية من مسيحيين ودروز ونسبة من السُنة مثل رئيس الوزراء الأسبق سليم الحص (فاعلين بصيغة الجمع وليسوا فُرادى) على أكثر من ذلك .قادرة على عودته أكثر قوة إلى لبنان خصوصاً أن هنالك معاهدة بين البلديْن لم تُلغ،وبالتالي إستعادة مجده ومجد والده من قبل في لبنان.الشرط لذلك هو أن يطوي صفحة العلاقة مع المملكة العربية السعودية ويحلق في فضاء الثورة الإيرانية وخلال أشهر سيكون لبنان صاغراً له ولا تستطيع السعودية أن تفعل شيئاً.وفي المقابل هنالك خطة لإرباك المملكة من خاصرتها اليمنية.

بدأت الخطة.وبدأ «حزب الله» ممارسة مهمات أقلقت بشَّار الأسد لكنه غير قادر على وضْع حد لما يفعله الحزب الذي بات منصة النظام الإيراي يدير من خلاله بنود استراتيجية التدخل في أمور داخل المنطقة العربية وفي الخارج.

ما أرادته الثورة الإيرانية يتحقق في لبنان.حافظت على عمقها الأساسي وجعلَتْه غير قادر على الخروج الآمن وبأقل الخسائر من أزمته.بات لبنان يعيش غربة عن إنتمائه العربي.يتساوى وضْعه مع الوضع الذي إنتهى إليه العراق.

إيران في سوريا ذات شأن مع النظام.هكذا أيضاً في العراق مع الفارق أن الشيعة الذين يشكلون الأكثرية هم أيضاً رهن القرار الإيراني.أما في لبنان فإن إيران ذات شأن مع ثلث الشعب أي الطائفة الشيعية التي بات هامش إنتمائها العربي في حالة ترقق،وهذا الشأن يجعل إيران لاعباً على الساحة اللبنانية ومتلاعباً بتركيبة النظام اللبناني ودستوره.

إلى جانب الشحن المذهبي وتخزين السلاح يعمل «حزب الله» من جهة و«حركة أمل» التي لم تغادر العروبة بالكامل على الإكثار من خلْق جزر شيعية في مناطق سُنية من العاصمة بيروت وفي العاصمة الثانية طرابلس بنسبة بسيطة والعاصمة الثالثة صيدا بنسبة تثير الحساسيات.كما يحاول إختراق مناطق مسيحية مع ما يتسبب به هذا الإختراق من هواجس.

ما أراده الإمام الخميني ويواصل وارثوه السعي في سبيله هو تكريس لبنان عمقاً إيراني الإلتزام بحيث إذا سقط النظام البشّاري وحل محله نظام إسلامي تصبح بموجبه سوريا إحدى قلاع الأمبراطورية الوهابية برؤية معدَّلة للوهابية، تتم مقارعة هذا النظام من لبنان.وهذا يتطب تعديلاً جذرياً في نظرهم بحيث يكون رئيس الجمهورية الماروني حليفاً لهم ورئيس البرلمان منهم ويكون هنالك إستحداث منصب نائب رئيس الجمهورية يتم إسناده إلى شيعي،وربما في ثنايا التخطيط يكون السيد حسن نصرالله هو نائب الرئيس.

وفي هذه الحال لا تعود الأمبراطورية الفارسية ذات الهوية المذهبية والمئة مليون ونصف منتشرين في دول العالم من القُطب إلى القُطب من الإستحالات.هذا في نظرهم.وهذا ما نلاحظه في بعض تنظيراتهم التي عندما عبَّروا عنها وقوبلت

بالإستهجان لم يتراجعوا عما قالوه ومن ذلك أن حدود إيران تمتـــد إلـــى ضـــفاف المتوسط أي آخر حدود لبنان مع فلسطين المحتلة وبداية حدوده مع ســـوريا التـــي إحتوت نظامها.

وإزاء ذلك تصبح إعادة القراءة من جانب السعودية لواقع الحال ضرورية وكما سبق ونراه،أي سعودة شيعة المملكة وليس تأميمهم،ولبننة شـــيعة نصـــرالله علـــى طريق العروبة.تلك هي الوصفة المطلوبة للعلاقة المعطوبة.إن إســـتعادة عروبـــة الشيعة العرب تبدأ أولاً بالترويض التنموي لشيعة لبنان وقبل أن يقضي الزهـــايمر المذهبي الإيراني على الأنسجة المتبقية من ذاكرتهم العروبية.

بيروت-السبت 9-4-2016